أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق..*

بقلم الدكتور: زغلول النجار

هذا النص القرآني المعجز جاء في مقدمات سورة البقرة، وهي سورة مدنية، وآياتها٢٨٦، وعلى ذلك فهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود قصة بقرة بني إسرائيل فيها، وتتلخص في أن يهوديا قتل في زمن نبي الله موسى، ولم يعرف قاتله، فعرض الأمر على موسى(عليه السلام) لعله يستطيع المعاونة في الكشف عن القاتل، فأوحى الله(تعالى) إليه أن يأمر القوم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن قاتله، وبعد لأي طويل فعل قومه ذلك، وتحقق ما وعدهم الله (تعالى) به كي تكون تلك الواقعة برهانا عمليا أمام أعينهم على إمكانية البعث، وقد كانوا من المتشككين فيه أو المكذبين لإمكانية وقوعه...!!

ويدور المحور الرئيسي للسورة حول الأحكام التشريعية في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، وهي صلب الدين.

و من الآيات الكونية التي جاءت الإشارة إليها في سورة البقرة عديدة، نختار منها ما يلي:

(الصيب) وهو المطر الغزير المصحوب بالرعد والبرق والصواعق والعواصف والذي يكثر في ظلام الليل.

إمكانية أن يخطف البرق بصر الذين يحملقون فيه.

يشبه الله(تعالى) فيها موقف المنافقين من أمثال اليهود المجرمين الذين آمنوا ثم كفروا، بالذي انتقل من النور إلى الظلام، ومن البصيرة إلى العمى، ومن الهداية إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، فترك في ظلمات الشك والحيرة، والكفر أو الشرك، والنفاق والضياع، لا يهتدي إلى خير، ولا يدرك طريقا للنجاة، ولذلك قال (تعالى) فيهم:

مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون* صم بكم عمي فهم لا يرجعون* أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين* يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير*(البقرة:١٧ -٢٠).

وقبل عرض الدلالة العلمية للتعبير القرآني أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق..*، لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين فيه.

من أقوال المفسرين في تفسير قوله(تعالى):

أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق..*(البقرة:١٩).

ذكر ابن كثير(يرحمه الله) ما نصه: هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى، قلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم(كصيب) والصيب: المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق، و(رعد): وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى:(يحسبون كل صيحة عليهم)..(وبرق) هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان....

وذكر صاحبا تفسير الجلالين(رحمهما الله) ما نصه:(أو) مثلهم(كصيب) أي: كأصحاب مطر، وأصله صيوب من صاب يصوب، أي: نزل ينزل(من السماء) السحاب(فيه) أي: السحاب(ظلمات) متكاثفة(ورعد) وهو الملك الموكل به، وقيل صوته(وبرق) لمعان سوطه الذي يزجره به....

وذكر صاحب الظلال(رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه:

إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب... إن الحركة التي تغمر المشهد كله: من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام... إن هذه الحركة في المشهد لترسم ـ عن طريق التأثر الإيحائي ـ حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون....

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن(رحم الله كاتبه برحمته) ما نصه:(أو كصيب من السماء) الصيب ـ كسيد ـ: المطر، من الصوب وهو النزول، يقال: صاب صوبا، إذا نزل وانحدر، سمي به المطر لنزوله، أي كمثل قوم نزل بهم المطر من السماء، وهي جهة العلو والمراد السحاب، وهو مثل آخر للمنافقين، يصف حيرتهم وشدة الأمر عليهم،(فيه ظلمات ورعد وبرق) تصحب الأمطار الشديدة التي تحدث عند تكاثف السحب في السماء وحجبها ضوء الشمس عن الأرض ـ ظلمات كأنها سواد الليل، ورعد يصم الآذان، وبرق يخطف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأبصار، وصواعق تحرق ما تصيبه....
وذكر كل من أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم وغيرهم من المفسرين، كما ذكر صاحب صفوة التفاسير(جزاهم الله خيرا) كلاما مشابها لا داعي لتكراره هنا.

الدلالة العلمية للآية الكريمة

- البرق والصواعق المصاحبة للعواصف والاعاصير الرعدية
- الاظلام المصاحب للعواصف والاعاصير الرعدية
- الدوامات الهوائية القمعية الشكل

هذا الوصف القرآني المعجز، الذي يقول فيه ربنا تبارك وتعالى: أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق..* ينطبق على الأعاصير الرعدية العنيفة، وهي أعاصير حلزونية، دوارة، عنيفة الحركة والسرعة، ولذلك تعرف باسم الأعاصير الدوارة(Cyclones) وهي كتل من الهواء تدور حول منطقة من مناطق الضغط المنخفض في عكس اتجاه عقارب الساعة في نصف الكرة الشمالي، وفي اتجاهها تماما في نصف الكرة الجنوبي، وتتحرك هذه الأعاصير بسرعات فائقة تزيد على٧٣ ميلا في الساعة، وقد تصل الى١٣٠ ميلا في الساعة أو إلى سرعات أعلى. ولذلك فهي أعاصير عنيفة، مدمرة، تصاحب غالبا بتلبد السماء بالغيوم الداكنة السميكة القريبة من سطح الأرض، والتي تحجب أشعة الشمس بالنهار، ونور القمر والنجوم بالليل، محدثة ظلمة قابضة.
وتصاحب هذه الظلمة بحدوث كل من ظاهرتي البرق والرعد، وهطول الأمطار بغزارة شديدة، وهذا ما تصفه الآية الكريمة بدقة علمية بالغة، على الرغم من ورودها في مقام التشبيه. ونظرا لانتشار هذه الأعاصير في المناطق المدارية، فقد سميت باسم الأعاصير المدارية الدوارة(Tropical Cyclones) وقد عرفت بأسماء أخرى في كل منطقة من تلك المناطق المدارية، منها اسم هريكين(Hurricane)في الأمريكتين، واسم تيفون(Typhoon) في مناطق بحر الصين(وهي لفظة صينية تعني الرياح الكبيرة)، و إذا كانت محددة المساحة على اليابسة فإنها تأخذ أشكالا قمعية ولذا تعرف باسم الدوامات الهوائية القمعية أو التورنادو (Tornadoes) وهي من أصغر تلك الأعاصير حجما وأكثرها تدميرا.
والأعاصير ليست مقصورة على المناطق المدارية وإن سادت فيها، وذلك لأنها تحدث أيضا في مناطق العروض الوسطى، وهذه الأعاصير لم تعرف صفاتها، ولم يتم تصنيفها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ووصفها بهذه الدقة العلمية البالغة من قبل اثني عشر قرنا على الأقل، لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد لهذا النبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين رغم أنف المارقين من الكفار والمشركين في كل عصر ومصر وفي كل حين...!!

الأعاصير المدارية

تتكون الأعاصير المدارية بين خطي عرض٥ و٢٠ درجة شمال وجنوب خط الاستواء، وتنشأ بدوران الهواء البارد حول مناطق الضغط المنخفض التي تتكون بالتسخين المحلي في بعض المناطق وبتوافر بقية الظروف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللازمة لتكون تلك الأعاصير ومن بينها هدوء الهواء وسكونه أو قلة تحركه، ويؤدي ذلك إلى تسخين طبقة الهواء الملامسة لسطح الأرض(سواء كان ذلك يابسة أو ماء) فتتمدد إلى أعلى ليحل محلها تيارات من الهواء البارد، مما يؤدي إلى حدوث حالة من عدم الاستقرار في هواء المنطقة.
وكلما زاد عمق منطقة الضغط المنخفض، وزادت شدة انحدار جوانبها بزيادة الفرق بين ضغطها، والضغوط المحيطة بها، زاد الإعصار عنفا، فتدور حولها الرياح بسرعات فائقة تصل إلى قرابة الثلاثمائة كيلومتر في الساعة، بينما يكون الهواء الساخن في مركزها ساكنا تقريبا.
وتتوافر ظروف تكون هذه الأعاصير بصفة خاصة في منطقة الركود الاستوائي، حيث تتقابل الرياح التجارية في نصفي الكرة الأرضية مندفعة باتجاه منطقة الضغط المنخفض وما بها من هواء ساخن يتجدد ويتصاعد إلى أعلى باستمرار، ومنحرفة إلى يمين اتجاهها في نصف الكرة الشمالي، والى يسار اتجاهها في نصفها الجنوبي، وذلك بسبب دوران الأرض حول محورها.
ولذلك تنشأ هذه الأعاصير بصفة خاصة فوق البحار الاستوائية والمدارية في فصلي الصيف والخريف، ويصل قطر الدوامة الواحدة منها إلى خمسمائة كيلومتر، ويصل قطر مركزها الذي يسمى عين الإعصار إلى أربعين كيلومترا، وتتراوح مدد مكث تلك الأعاصير بين عدد قليل من الأيام وأكثر من أسبوعين.
وتصاحب الأعاصير المدارية عادة بتكون السحب الداكنة الكثيفة والقريبة من سطح الأرض، وبسقوط الأمطار الغزيرة المصاحبة بظاهرتي البرق والرعد.
ومما يساعد على استمرار ارتفاع الهواء الساخن في مناطق الركود الاستوائية، ارتفاع نسبة الاشعاع الشمسي مما يؤثر على ارتفاع معدلات تبخر ماء البحار والمحيطات، وبالتالي إلى ارتفاع نسبة الرطوبة في الهواء مما يعين على تكوين السحب الكثيفة الداكنة بإذن الله وعلى هطول الأمطار الغزيرة، حيث يشاء، وكلها من العمليات التي تتسبب في رفع درجات الحرارة الكامنة في عين الإعصار، وفي استمرار تحرك الهواء الساخن إلى أعلى، واندفاع الهواء البارد من المناطق المحيطة ليدور حوله أو يحل محله.
والأعاصير المدارية تتكون أساسا فوق البحار والمحيطات، وعندما تندفع في اتجاه اليابسة تفقد كثيرا من سرعتها باحتكاكها مع سطح الأرض، ولكنها تظل قادرة على إحداث قدر هائل من الدمار من مثل هدم المباني والمنشآت، والخسائر في الأرواح والممتلكات، وحدوث السيول الجارفة، والفيضانات والأمواج المغرقة للسفن والمنشآت البحرية على طول السواحل والى مسافات متباينة في عمق اليابسة.
وتكثر الأعاصير المدارية في كل من جزر الهند الغربية، وسواحل فلوريدا، وخليج المكسيك، وفي بحر الصين وسواحل الجزر اليابانية، وفي بقية جزر المحيط الهادي وفي شرقي استراليا، وفي خليج البنغال، وفي جنوب المحيط الهندي.

الدوامات الهوائية القمعية الشكل

تطلق كلمة تورنادو(Tornado) على الدوامات الهوائية القمعية الشكل، وهي من الأعاصير المدارية الشديدة الأثر والتي تضرب الأجزاء الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية سنويا في مساحات صغيرة من الأرض قد لا يتعدى قطرها المائة متر، تدور فيها الرياح بسرعات مدمرة حول مركز الإعصار الذي ينخفض الضغط الجوي فيه بدرجة قياسية، وتصاحبه الأمطار الغزيرة المصحوبة بظاهرتي البرق والرعد في أشد صورهما.
وعند مرور هذه الدوامات الهوائية القمعية الشكل فوق ماء البحار والمحيطات، يرتفع سطح الماء إلى أعلى على هيئة مخروط يعرف باسم النافورات المائية، يقابله مخروط من السحب يتدلى نحو سطح البحر فيحدث ظلمة شبه كاملة، وتشكل هذه الظروف خطرا داهما يهدد السفن البحرية بالإغراق، وتحدث مثل هذه الدوامات الهوائية القمعية الشكل غالبا بعد الظهر في فصلي الربيع والصيف حين تبلغ درجات الحرارة نهاياتها العظمى وتستمر بضع ساعات.
وتتحرك هذه الدوامات الهوائية بسرعات كبيرة تصل الى ٧٠ كيلومترا في الساعة، ولكن أثرها سرعان ما يتلاشى علي الرغم من قوتها التدميرية الكبيرة، المتمثلة في اقتلاع الأشجار وتحطيم المباني والمنشآت على اليابسة، وفي إغراق السفن في عرض البحار.

أعاصير العروض الوسطى

تنشأ أعاصير العروض الوسطى بين خطي عرض٣٥ و٦٥ درجة في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي، حيث تنشأ في النصف الشمالي من التقاء الرياح المدارية العكسية(الغربية) الدافئة الرطبة القادمة من الجنوب مع الرياح القطبية الباردة الجافة القادمة من الشمال، فتندفع الرياح الباردة تحت الدافئة، رافعة إياها إلى أعلى ومكونة سطح انفصال بين الكتلتين الباردة والدافئة، يندفع فوقه الهواء الدافيء على هيئة موجات تشكل كل واحدة منها النواة الأولى لإعصار منخفض، يأخذ في النمو التدريجي مكونا منطقة من الضغط المنخفض فوق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سطح الانفصال، يندفع فيها الهواء البارد محاولا الوصول إلى مركزها باتجاه معاكس لاتجاه عقارب الساعة في نصف الكرة الشمالي، ومعه في نصف الكرة الجنوبي، ويظل الإعصار نشيطا حتى يتم هيمنة الهواء البارد على قلب الإعصار فيبدأ في التلاشي بالتدريج، وتصاحب أعاصير العروض الوسطى بتكون سحب رقيقة متفرقة على ارتفاع كبير، تتزايد كثافة وسمكا وقربا من سطح الأرض بتزايد الإعصار شدة، حتى تتلبد السماء بالغيوم الداكنة الكثيفة فتحجب ضوء الشمس بالنهار، ونور القمر وأضواء النجوم بالليل، وعندئذ يبدأ هطول المطر بزخات خفيفة تتزايد بالتدريج مع حدوث البرق والرعد، حتى تنهمر الأمطار بغزارة في جو من البرودة الشديدة والاضطرابات الجوية العديدة، ثم يأخذ الجو في التحسن التدريجي بابتعاد مركز الاعصار ولكن تظل درجة الحرارة مائلة إلى البرودة النسبية.

وتتفاوت أعاصير العروض الوسطى في أحجامها، وأعماق بؤرها، وفي شدة انحدار جوانبها، فمنها ما لا يزيد قطره على(٣٠٠) كيلومتر، ومنها ما يتجاوز ذلك(١٥٠٠) كيلومتر، ومنها ما هو شديد العمق وما هو ضحل، ومنها ما هو شديد الانحدار، وما هو قليله.

وأثر هذه الأعاصير لا يقتصر على حدود المنطقة التي تغطيها، ولكنه يمتد إلى خارجها، ويتوقف ذلك على عمق مركز الاعصار وعلى درجة انحدار جوانبه، أي: على تباين كل من الضغط ودرجة الحرارة بين عين الإعصار وحوافه، والتي تتوقف عليها سرعة الرياح حول مركز الإعصار.

من هذا الاستعراض يتضح بجلاء أن الوصف القرآني للأعاصير كما جاء في هذا النص القرآني المعجز:

أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق...(البقرة:١٩).

ينطبق انطباقا كاملا على الحقائق التي توصلت إليها المعارف المكتسبة في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، والتي لم يدرك علم الإنسان طرفا منها إلا مع نهايات القرن التاسع عشر الميلادي.

وورودها في كتاب الله الذي أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرنا بهذه الدقة العلمية الفائقة، والشمول الكامل، والإحاطة التامة لايمكن لعاقل أن يتصور له مصدرا غير الله الخالق(تبارك وتعالى).

فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم، أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وصلى الله وسلم وبارك على النبي الخاتم، والرسول الخاتم، الذي تلقى هذا الوحي الخاتم، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فنسأل الله(تعالى) أن يجزيه خير ما جازى به نبيا عن أمته، ورسولا على حسن تبليغ رسالته، والحمد لله أولا وأخيرا على حفظ القرآن العظيم، هذا الكتاب الكريم، بنفس لغة الوحي(اللغة العربية)، في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، فجاء معجزا في كل أمر من أموره، وفي كل آية من آياته، وكلمة وحرف من كلماته وحروفه، ولو جاء ذلك في مقام ضرب المثل أو التشبيه، حتى يبقى هذا الكتاب الخالد حجة على الناس كافة إلى قيام الساعة لا ينكره إلا جاحد، ولا يتركه وراء ظهره إلا شقي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com